

الحمد لله الذي...

درسنا في حياة النصارى



كان المسلمون في الماضي كلما حز بهم الأمر ، وبلغ اليأس بهم كل مبلغ ، وجدوا في خبر المهدي الذي يأتي آخر الزمان ، أو المجد الذي يبعث على رأس كل مائة سنة ، ما يحيي فيهم ميت الأمل ، ويبعث فيهم الرجاء بعد اليأس .

وهام أولاء الآن قد حز بهم الأمر بحال يحصل مثله في ما ضيهم ، فأصبحوا من الضعف بحيث طمع فيهم من لا ناصر له وغلب عليهم كل مغلب ، وشمخ عليهم من ضربت عليه الذلة والمسكنة ، فهم في أشد حاجة إلى من ينهض بهم من هذا الضعف فيصلح ما فسد من أمرهم ، ويجدد ما بلى من أحوالهم ، ويقضي على ذلك الجلود الميتة ، ويقذف بالحق على الباطل فيدمته ، ويقود جنود الإصلاح إلى النصر ، وينظم صفوفهم في الحرب القائمة بينهم وبين دعاة الجود ، حتى ينتظم ما تفرق من صفوفهم ، وترتفع في الخافقين أسواتهم .

فهل يقوم لهم بذلك ما يرجونه من المهدي المنتظر ، أو من المجدد الذي يبعث إليهم في رأس كل مائة سنة ؟ والجواب عن ذلك يجرنا إلى النظر فيما مضى من آثر الفكرتين في المسلمين .

لقد نبئت فكرة المهدي المنتظر بين فرقة الشيعة من المسلمين فانتظروه شخصا من آل بيت النبوة يوافق اسمه اسم النبي صلى الله عليه وسلم ، ويوافق اسم أبيه اسم أبيه أيضا ، فيكون إماما معصوما ، ويكون مؤيدا فيما يقوم به من الله تعالى ، ويكون له حكم المسلمين جميعا ، فيرجعون إليه في أمور دينهم ودنياهم .

ولاشك أن هذه أمور تغري النفس كل الإغراء ، وتثير في كل شخص أن يكون المهدي المنتظر ، لتكون له تلك القداسة الدينية ، وليكون له ذلك السلطان على المسلمين ، وكل ما كان من هذا القبيل يدخل فيه الاحتيال ، ويستعان عليه بالتصنع ، وما يدخل فيه الاحتيال لا ينطلي عند كل الناس ، وما يستعان

عليه بالتصنع لا يلبث أن يظهر أمره ، فيفترق فيه المسلمون حيث يراد اجتماعهم ، ويكون وسيلة خصام ، لا وسيلة سلام ووثاق . وقد قامت محاولات كثيرة في ذلك كان الفضل نصيبها كلها ولم يستفد المسلمون منها شيئا ، بل كانت تزيدهم فرقة إلى فرقهم وكان الخلاف يتسع بها بينهم ، ولم تقدم محاولة منها ما يطلبونه من إصلاح ، ولم توصلهم إلى ما يريدونه من تجديد .

وكانت أول محاولة في ذلك من أبي جعفر المنصور ثاني ملوك بني العباس ، وكان من قبله من بني العباس قد وضوا تنبؤات في ظهور أمرهم ، وفي ظهور المهدي من بينهم ، ومن ذلك ما روى عن ابن عباس — والظاهر أنه موضوع عليه — أن أم الفضل حدثته أنها مررت بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال لها : إنك حامل بسلام ، فإذا ولدت فأنتيني به ، فلما ولدت أنت به النبي صلى الله عليه وسلم فأذن في أذنه اليمنى ، وأقام في أذنه اليسرى ، وأباه (١) من ريقه وسماه عبد الله ، وقال : اذهب بأبي الخلفاء . فأخبرت العباس — وكان رجلا لباسا — فلبس ثيابه ، ثم أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما بصر به قام فقبل بين عينييه ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم . فقال : هو ما أخبرتك ، هو أبو الخلفاء حتى يكون منهم السفاح ، حتى يكون منهم المهدي ، حتى يكون منهم من يصلي ببيسى ابن مريم .

ومن ذلك ما روى عن ابن عباس عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : اللهم انصر العباس وولد العباس — قالها ثلاثا — ثم قال : يا عم ، أما شعرت أن المهدي من ولدك موققاراضيا مرضيا وكان أبو جعفر المنصور يسمى عبد الله ، وكان له ابن يسمى عمدا ، فأراد أن يحمل منه المهدي الذي مهدوا لظهوره بهذه التنبؤات ، وكان أبو العباس السفاح قد بايع لأخيه أبي جعفر من بعده . ثم لابن أخيه عيسى بن موسى من بعد أبي جعفر ، فلما صار الأمر إلى أبي جعفر المنصور عمل على أن يخلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، وأن يضع مكانه ابنه عمدا ، فلحقه الهدى . وأشاع حوله تلك الأحاديث والتنبؤات التي ترى إلى تقديمه وتمطيحه ، وتشير إلى أنه يقوم بالأمر فيملا الأرض عدلا ، ثم أخذ يرغب الناس فيه ، ويجتهد في حمل وجوه دولته على الالتفاف حوله

(١) أي صب ريقه في فيه كما يصب البيا في فم الصبي ، وهو أول ما يحلب عند الولادة

الإسلام قد أغلق باب الإقناع بهذه الوسائل بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفتح باب الاجتهاد والإصلاح ، وجعل وسيلة الإقناع بالدليل ، حتى يؤمن الناس به عن بصيرة ، ويأخذوه عن علم لا عن تقليد ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه دينهم ، وكما كان الأصحاب يأخذون دينهم عنه .

ولأنهم يرجون مصلحا ينهض بهم والزمان مقبل ، والدنيا لا يزال فيها أمل ، فيستردون به ما ضاع من مجددهم ، ويميدون به ما ذهب من عزهم ، ويكون لهم في ذلك أمل كأفصح ما يكون الأمل ، ويكون لهم فيه رجاء كأقوى ما يكون الرجاء . وبوانتهم فيه الزمان كما وانهم من قبل .

ولا يرجون مصلحا يأتي لهم في آخر الزمان ، والدنيا مدبرة والآخرة مقبلة ، فلا يكون أمامهم من نصحة الزمان ما يشيدون فيه كما شيد آباؤهم ، ولا يكون عندهم من بيد الأمل ما ينهض بهم كما نهض بسلفهم .

وهذا إلى أن أخبار المهدي المنتظر لا يتفق المسلمون على التصديق بها ، بل يذهب كثير من العلماء إلى إنكارها ، ويرون أنها تنبؤات وضعت لأغراض سياسية ، وقد اكمل الله الدين ببشارة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقطع ببشيرة حجة السماء على الأرض ، ولم يبق بعده حاجة إلى اتصال بينهما ، كالاتصال الذي تقوم عليه فكرة المهدي المنتظر .

أما فكرة المجدد الذي يبشيره الله في كل جيل من أجيال المسلمين ، فلا تقوم على ما تقوم عليه فكرة المهدي المنتظر من دعوى الولاية ، وادعاء التأييد من الله تعالى ، ولا يقصد صاحبها ملكا بين الناس ، ولا سلطة دينية ينتفع بها في دنياه ، ولا يلزم أن يكون شخصا من آل بيت النبوة ، وإما هو شخص من عامة المسلمين ، كل عقله ، وسما علمه ، وعرف الذاء والدواء ، وآمن بالتجديد والإصلاح ، فقام يدعو إلى ذلك بالنظر والاجتهاد ، ويؤيده بالدليل والبرهان ، ويضحى فيه بنفسه وماله ، ويستبين فيه بكل ما يلقى من كيد ، وما يصادف من عناء ، ويرجو من ذلك كله أن تظهر دعوته ، وينتصر حقه على باطل غيره ، فترتفع راية الإصلاح ، وتنتشر دعوة التجديد ، ولا يكون له بين المسلمين إلا شرف الجهاد ، وحسن الذكرى .

وتلك كانت غاية الأنبياء والرسل من دعوتهم ، من بشارة نوح عليه السلام ، إلى بشارة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقول نوح لقومه في الآية (٧٢) من سورة يونس (فإن توأمتكم فسالتكم من

فلما تم له ما أراد من ذلك جعله من فعل الله تعالى ، وأنه هو الذي أشرب قلوب الناس سودة المهدي ، وقسم في صدورهم عيبه ، فصاروا لا يذكرون إلا فعله ، ولا ينهون إلا به ، ولا يجري على ألسنتهم إلا ذكره ، لمرفتهم إياه بعلاماته واسمه ، ثم أقدم على الغاية التي أرادها من ذلك ، فأراد أن يخلق عيسى بن موسى من ولاية العهد ، ويولي مكانه ابنه المهدي ، تنفيذ لما أراده الله من ولايته ، لأنه زعم أنه أمر تولاه الله وصنعه ، ولم يكن للعباد فيه أمر ولا قدرة ، ولا مؤامرة ولا مذكرة .

ولكن عيسى بن موسى لم ينظر عليه شيء من ذلك ، ولم يذعن لهذا الاحتيال الظاهر من عمه أبي جعفر ، ورأى أنه لا مهدي براد ، وإنما أراد ولاية العهد لا غير ، والباطل يظهر أمره وإن حاول الناس إخفاءه ، والحق لا يأتي بمثل هذا الاحتيال والتصنع ولا يقوم أمره على نقض العهد ، ولا تستبيح دعوته الحث في الإيمان فلم يزل عمه أبو جعفر يأخذه تارة بالقهر ، وتارة بالإغراء ، حتى خضع لما أراد ، وترك ولاية العهد لابن عمه المهدي ، فقام بالأمر بعد أبيه أبي جعفر ، وإذا هو ملك كثير من الملوك ، لم يعلأ الأرض عدلا ، ولم يحقق للمسلمين أملا مما يرجونه من المهدي المنتظر ، بل سار في الطريق التي سلكها من مضى قبله من ملوك بني العباس وبني أمية ، وسلكها من أبي بعده من الملوك ولم يكن ما قام به النصور من الدعاية له إلا أمانى خادعة ، واحتيالات لما أراده من قيامه بالأمر بعده .

وكذلك كان أمر كل من ادعى أنه المهدي المنتظر قديما وحديثا ، يحاول في أمره أن يصله بأمر السماء ، ليأخذ الناس بدعوى الولاية ، وادعاء التأييد من الله تعالى ، ويحملهم على ما يريد من إذعانهم له ، حتى يقيم فيهم ملكا له ولأولاده ، أو يجعل له سلطة دينية عليهم ، فلا يتخذه به في ذلك إلا من تنطلي عليهم خديعته ، ويبقى جمهور المسلمين بميدا عنه ، لا يؤمن بخديعته ، ولا يرى أن دعوته هي الدعوة التي يرجوها .

لأنهم يرجون إصلاحا لا ملكا ، ويريدون مصلحا لا يبني لنفسه من الإصلاح شيئا ، ولا يجعله وسيلة لمآرب شخصية ، دينوية كانت أو دينية ، حتى تكون دعوته خالصة لوجه الإصلاح لا يشوبها شك ، ولا تشوها ريبة .

ولأنهم يرجون الإصلاح من طريق السلم والاجتهاد ، ويريدون أن يؤمنوا به بالدليل والبرهان ، لا بتلك التنبؤات الموضوعية ، ولا بدعوى الولاية والتأييد من الله تعالى ، لأن